العـــدد «163» 10/10/ 2002م

بدل الأعـلام الليـبي رمـوزه وشـعـاراته ومـفـردات خطابه القـومي بـأفـريقـيـة القـذافي وخارطته الجغرافية، لكنه لم يخاطب في افريقيا أكثر من دائرة الحقيقة في اللسان العربي، فإذا أراد الإعلام الليبي تحري الصدق في اتجاهه الأفريقي، كان عليه أن يعود للحقيقة القومية، لينشئ وسائط إعلامية مساوية لعدد اللغات القومية للشعوب الأفريقية، عندها سيجد الإعلام الليبي الحقيقة في عروبة ليبيا الأفريقية، وإن لبس القذافي أزياء مهما كانت ألوانها وأنماطها دالة على أفريقيته، فإنها تظل نكرة ما لم تعرف بهويتها القومية، فبذلك اللباس يصبح القذافي أفريقياً، لكنه بكل تأكيد لن يصبح أثيوبياً ولا أوغندياً ولاكينياً، فإذا قال أنه أفريقي من ليبيا، قالت ليبيا أنها عربية، وتلك هي المأساة.

في كتاب استقالة القذافي من مقام البطولة نقرأ سطوراً دالة على أن الأمة التي منحته شرف الاستحقاق بهذا المقام، لم تخسر شيئاً أكثر من خسارتها المحمولة على حكام أقطارها الذين انسلخوا عن هويتها القومية، إلى جزئيات قطرية، لكن القذافي لم يربح أكثر مما لسواه من حكام الأقطار النفطية في الوطن العربي، وقد خسر مقامه ورصيده التأريخي في مقام الاستحقاق القومي للبطولة التأريخية، والقيادة الشعبية للجماهير، ولن يجد تعويضاً لخسارته الكاملة هذه، لأنه لن يجد لنفسه في أفريقيا موقعاً للبطولة، ولا عمراً يكفي لدوره الجديد.

ثانياً: الأفرقة من منظور الدولة والثورة:

لم يثبت القذافي في كتاب استقالته من مقام البطولة ورصيده التأريخي في هذا المقام، شيئاً جديداً عن القومية العربية والحركة الرسمية والشعبية للنضال القومي المعاصر للأمة في سبيل أهدافها الكبرى في الحرية والاشتراكية والوحدة، ولكنه اثبت من حيث لايدري أن قوميته ـ التي كانت ـ لم تفلح في تجسدها كحقيقة في القطر الليبي في المستويات الرسمية والشعبية للثورة والدولة في ليبيا، فقد كانت قومية ليبيا قراراً شخصياً للقذافي، سقطت بمجرد إعلانه قرار التخلي عن الرابطة القومية وإستبدالها بالقضاء الأفريقي، ولم تكن السرعة والسهولة التي استجابت بهما الدولة والثورة في ليبيا، لقرار القذافي بالأفرقة، سوى دليلاً على أن مصائب القومية العربية هي تحكم الأفراد بالأمة، وتسلطهم على قرارها، وتفريطهم بهويتها ومصالحها الحيوية في الوجود والمصير.

الجماهير التي بشر بعصرها الكتاب الأخضر، قررت فجأة وبسرعة في مؤتمرات النظام الجماهيري، إسقاط الدائرة العربية، من دائرة السياسة الخارجية للدولة الليبية، لتستبدل اللجنة الشعبية للوحدة العربية،باللجنة الشعبية للوحدة الأفريقية، بغير أية مبررات غير مبررات الطاعة لولي الأمر الذي هو في ليبيا، قائد الثورة، وفي بقية الأقطار رئيس أو ملك أو أمير، وعلى شاكلة الجماهير في مؤتمراتها الشعبية وقفت الجماهير الثورية في حركة اللجان الليبية، للتأفرق بذات السرعة التي لم تتوقف عن التزامها الأيديولوجي للكتاب الأخضر، وثوابته المبدئية في العامل القومي والسلطة الشعبية، لتثبت أنها عربية خالصة بوفائها للقاعدة الذهبية في الحكمة القائلة بأن «الناس على دين ملوكهم»، فحركة اللجان الثورية هي حزب الحاكم العربي في ليبيا، وعلى دينه، فهي قومية إن كان الحاكم قومياً، وهي أفريقية إن تحول إلى أفريقيا، فإذا كان موقف الدولة والثورة في ليبيا محكوماً بدين الملك، فلماذا غضب الليبيون من مثيل هذه المواقف في بقية الأقطار العربية؟

المثقفون في ليبيا على موجات الإرسال الإذاعي للحاكم، لم يجدوا حرجاً في التحول مع أفريقية القذافي، ليهاجموا ماكتبوه عن قومية أمسهم، ويبشروا بعصر الفضاء القادم مع الفضاء الأفريقي للقائد الملهم، والمفكر والقائد القاري الذي لم تعد لدى المثقف الليبي، لازمة لوصفه بأمين القومية ولا لهتاف له، بالهتاف القديم «عبدالناصر قال وصية..معمر هو أمين القومية» ولم يغيروا شيئاً ولم يثبتوا جديداً سوى سقوط الوهم عن مصداقيتهم القومية لتنكشف حقيقة كونهم على شاكلة المثقف العربي: بوقاً للسلطات، وليس صوتاً للأمة.

هكذا كشفت أفريقية القذافي أزمة المشروع القومي في ساحته القطرية، ليثبت كتاب استقالته من مقام البطولة التأريخية، أن الثورة الليبية لم تفشل في صعيدها القطري، وبينما كان مقام البطولة يستدعي القذافي إلى مجد الانتصار لقضاياه القومية، من ميدان التحول بالتضحيات الفردية لشخصه، إلى ميدان التضحيات الجمعية للأفراد في قطره، فاجأتنا الأفرقة بأن جماهير الثورة والدولة في ليبيا بعد ثلاثين عاماً من ثورة الفاتح لاتزال الأكثر حاجة من كل الجماهير العربية إلى ثورة تتعلم منها مبادئ السلطة الشعبية، والعامل القومي في حركة التاريخ، بل إن حركة اللجان الثورية بدت الأكثر حاجة من الأحزاب والتنظيمات العربية، إلى تعلم دروس التحريض على معارضة الحاكم العربي وسياسته الرسمية ضد شعبه ومصالح أمته.

إن المصيبة الأكبر في أفريقية القذافي لم تكن في استقالته من مقام البطولة فحسب، بل في الحقيقة الدالة على هيمنة التبعية للسلطان، بغير صدق في الولاء والحب الوفي للقائد الذي يحرص على حراسة المجد المكتسب لقائده بالنقد والاعتراض بنفس القدر من حرصهم على طاعة القائد فيما يضيف إلى مجده جديداً، وفي ليبيا لم يقل أحد للقائد بأن أفريقيته كانت من مقام بطولته في الدائرة القومية، وكما لم يحرص أتباع القذافي على حراسة مقام بطولته وتاريخه في هذا المقام، بنصح أو بحث يقرأ الخسارة التي تعزل القذافي من موقعه في قيادة الجماهير وحركتها القومية، فلماذا يتحمل الليبيون تضحيات الواجب القومي وهم على بحر من النفط يجعلهم أكبر من كل مهرجانات التسوق التي تشهدها عواصم الأقطار النفطية المحكومة بالاستبداد والتجزئة والهيمنة الغربية؟

إن التردي العربي هو الذي أفرد للقذافي مقام البطولة بدون منازع، ولو كان في قومه بطلاً أو في قوميته بطولة، لما وجد القذافي في مقام البطولة القومية دوراً أو موقعاً، ولما كانت الأفرقة فضاء لخروجه من مقام البطولة واستحقاقه بالتضحيات، لقد كانت أفريقية القذافي انقلاباً على ثوريته وردة عن دوره النضالي في جبهة الدفاع عن الأمة والتصدي للأخطار والأعداء، وهو انقلاب انتصرت به القوى الإقليمية في أجهزة الثورة والدولة على الجماهير الشعبية وقواها الثورية التي حملت مشروع الفاتح قطرياً وقومياً، لتعود ليبيا إلى واقعها القطري قبل ثورة الفاتح، وإن كانت هذه العودة منزهة حتى الآن، عن الخيانة بالتبعية للقوى الأجنبية وقواعدها العسكرية، لكن كل ردة تبدأ حركتها ضد الثورة من خطوة أولى، ثم لا تتوقف انهياراتها عند حد أو حدود.

ثالثاً: البطولة القومية في عصر العولمة

يخرج القادة وعظماء التاريخ في أية أمة، من ليل انكسارات أمتهم وبقايا حطامها، ولم يعترف التاريخ، ولن يعترف، بالقيادة أو العظمة لفرد تخلى عن دوره في حركة تغيير واقع أمته، بفعل اليأس من جدوى الحركة في أمة تتشبث بالبقاء في ليل الانكسار، وذل الحطام، والذي يحاول قراءة الموقف السياسي للقائد معمر القذافي يدرك أنه استقال من موقعه في قيادة العمل القومي مرتين: الأولى حين هدم من الاستمرار في تحمل مسئوليات انتمائه إلى العروبة هوية وقومية، والثانية حين هرب تاريخه الخاص في العمل القومي من موقعه القطري في الجماهيرية ثورة قومية ومشروعاً وحدوياً، وحين يبرر القذافي خروجه من الدائرة القومية كدائرة للعمل القومي بين الواقع والمشروع يأتي هذا التبرير بالاستحقاقات التي تستدعي الانتماء، وتفرض الأمل بدعوة الوحدة، فالمريض يستدعي الطبيب والعلاج، والصحة تستغني عنهما.

لو كانت الأمة العربية موحدة، أو تتحرك نحو الوحدة لما كانت تحتاج لمن يحمل هم وحدتها ويقود حركتها نحو التوحد والتكامل، وحين تفرد الأمة موقع القيادة لحقيقتها الوحدوية وحقها في التوحد، للقائد العربي معمر القذافي فإن محاولاته في ربع قرن لاتصلح أساساً للحكم على المشروع القومي للوحدة العربية بالفشل، أو بالاستحالة وعدم الجدوى، لذلك فإن مبررات التحول السياسي والدعائي بخطاب معمر القذافي وحركته الشخصية والرسمية في قيادة السياسة الليبية من فضاء القومية: عروبة ومشروعاً وحدوياً، إلى فضاء الأفرقة: جغرافياً واتحاداً مرتقباً هي مبررات تستدعي الأمة أكثر من أي عامل للاتحاد الأفريقي، ففي القارة الأفريقية تتوحد مصالح الأمم قبل الرغبات السياسية للأفراد أو الدول، وليبيا جزء من أمة لن تجد مكانها في الفضاء الأفريقي مالم تكن قد وجدت هذا المكان في أمتها، أو تلك هي شروط التعارف قبل التآلف بين الشعوب والأمم البشرية بحكم التكوين الجغرافي والتاريخي للهوية القومية: لساناً ورسالة.

في التجربة التأريخية للقذافي في العمل القومي وقيادة المشروع الخاص به فرداً وقطراً، تخضع المحصلة الإجمالية لحركة الخطاب والعمل لحاكمية التكامل بين مسئوليتين: مسئولية القذافي عن أخطاء التصور وخطايا التصرف أي مسئولية القيادة عن أخطاء النظرية والأسلوب، ثم مسئولية المستهدف بالخطاب، والعمل عن خطايا الغفلة والإعراض، أي مسئولية الأمة، عن خطايا الوعي والاستجابة، وبحاكمية التكامل هذه، يكون أي فشل في محاولات العمل القومي، موضوعاً للمراجعة النقدية باتجاه البحث عن عوامل الفشل، والكشف عن مداخل النجاح، ولقد كان القذافي ضحية أولى لمثاليته النظرية، التي أخلصت للحقيقة القومية والحق العربي، ولم تدرك حقائق التجزئة والباطل القطري، أي أن القذافي قاد لمشروعه القومي من حقيقة التضاد بين التجزئة والوحدة، وأغفل بحسن نية حقيقة المسافة بين الضدين كواقع تاريخي لتحولات الأمة من الوحدة إلى التجزئة، تستدعي مماثلة في مشروع التغيير وحركته لصنع التحول من واقع التجزئة إلى طموح الوحدة وفي منعطف تحولات كبرى في عصر العولمة، أثرت إيجابياً في البعد القومي للواقع القطري، أقدم القذافي على الانتحار التأريخي حين استقال من هويته القومية انتماءاً وإيماناً، وهدم تاريخه القيادي للعمل القومي ببديل جغرافي تتأكد فيه الهوية القومية للاتحاد في الفضاء القاري، وتتجذر بالتوحد العربي في الشطر الأفريقي من فضاء الهوية العربية: لساناً وأمة.

لم يترتب على استقالة القذافي من الانتماء القومي وقيادة مشروعه المستقبلي: فكراً وحركة، أثر ينفي الحقيقة العربية كهوية وجود ومصير أو يلغي مشروعية العمل القومي في المستويين الرسمي والشعبي للدولة القطرية، كل مانجم عن تلك الاستقالة حكم تاريخي مفاده أن القذافي لايستطيع البقاء في موقع جاءه كفرصة تأريخية لقيادة حركة التوحد في أمته، بل إن حكم التاريخ أفاد بأن القذافي لم يرض لنفسه شرف المحاولة الفاشلة، واستبدله بصفات المهزوم الذي قتله يأسه من قتال العدو، قبل أن يقتله عجزه عن الانتصار، ولو فكر القذافي أو أعانه مستشاروه، لتمهل في إعلان استقالة مسببة بالخسران المبين لشخصه وتاريخه، ولو وجد أن حصاد قيادته للعمل القومي ومشروعه للتحرر والاتحاد، قد كان ايجابياً من حيث أن الوقائع المستجدة سياسياً واقتصادياً في الوطن العربي في عصر العولمة تشهد بصدق خطاب القذافي ومصداقيته في الانتماء والعمل بهذا الخطاب كما تشهد بهزيمة الخطاب القطري وعجزه عن اثبات انتمائه لهويته التأريخية في العروبة والإسلام، فلماذا استبق القذافي شهادة المستجدات والنتائج في الواقع القطري بصدق الخطاب الوحدوي بتكذيب هذه الشهادة وإعلان البراءة من عروبته والاستقالة من تاريخه الوحدوي وقيادته للعمل القومي؟ أليس العصر عصر الانهيارات الكبرى في الحدود والسدود؟

بينما كانت المخططات الهادفة إلى استكمال مساعيها للقضاء النهائي على الهوية الحضارية التأريخية للأمة العربية: لساناً،رسالة، تتحطم على صخور الحقيقة القومية والحق القومي اللذين استعصيا على محاولات التذويب في مشاريع الشرق أوسطية والمتوسطية، وعمليات التفريط بالحق العربي في فلسطين تحت مسمى التسوية السلمية للصراع العربي ـ الصهيوني، بينما كان هذا ينتصر للقذافي والسياسة الليبية، كان القذافي يغتال هذا النصر، باليأس والاستقالة، والتحول إلى أفرقة لاتعرف القذافي ولاتعرفه إلا بأنه عربي من أفريقيا.

ربما كان الأسلم لمعمر القذافي أن يعترف بهزيمته أو عجزه في محاولاته العمل على توحيد الأمة العربية، وأن يعلن أنه سيحاول من جديد، أو يترك لغيره خلافته في قيادة دعوة الوحدة وحركتها الرسمية والشعبية، لكنه اختار لنفسه غير ذلك، فتبرأ من انتماء وتاريخ، واستقال من دوره التاريخي وموقعه القيادي، ليحمل الأمة مسئولية، منحته شرف قيادتها، وهزيمة، دعته ليقود حركة الخروج من أسرها، ولم يضف جديداً يستحق عليه العذر، كما لم يترك فسحة توجب عليه العتاب، فقد تأفرق بجغرافية سبقته ولم يخترعها، وتبرأ من عروبة هرب من مجد قيادتها، واختار لنفسه ماليس من تاريخه ولا من أسمه، ليدخل عالم النسيان في فضاء لا معنى فيه لغير الهوية القومية لأمم القارة الأفريقية، فالأسماء المختارة لملء الفضاء الأفريقي هي أسماء أمم من قبائل أفريقيا وشعوبها، فإذا قال القذافي أنه ليبي، قالت ليبيا أنها عربية قبل أن يكون القذافي قومياً وبعد استقالته من تلك القومية وبطولتها التأريخية واستبدالها بأفرقة لامعنى لها ولاهوية.

لاشك أن الأمة هي الشريك للقذافي في خسارة استقالته من قيادة العمل القومي، لكن خسارة الأمة قابلة للتعويض، لأن القومية العربية كما قال الزعيم الراحل جمال عبدالناصر تصنع قادتها التأريخيين ولا يصنعها هؤلاء القادة، أما خسارة القذافي فقد جاءت كاملة وبغير تعويض، إلا إذا أراد هو الرجوع من ردته إلى تاريخه الثوري وحقيقته القومية، هوية ومشروعاً فكرياً وحركياً للتغيير والمستقبل.

فلماذا استقال العقيد معمر القذافي من مقام البطولة التأريخية؟

وماهو سر الفاتح إذا لم يعد سره

منظر من مدينة طرابلس

* باحث وكاتب